عالم بلا فقر
دور الأقراض بالغ الصغر في التنمية

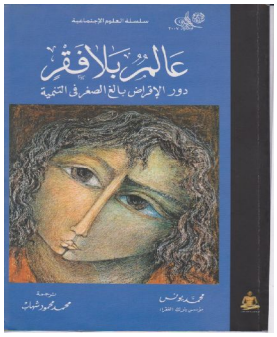

تأليف : د. محمد يونس
مؤسس بنوك الفقراء
حائز على جائزة نوبل للسلام عام ٢٠٠٦
ترجمة : محمد محمود شهاب . الناشر : مكتبة الأسرة مصر ٢٠٠٧
عرض : د. قصي الجابري*

ان الفقر لا يليق بالمجتمع الأنساني المتحضر
ومكانه الصحيح هو المتحف ..... د.محمد يونس

كتاب عالم بلا فقر من الكتب الرائعة التي كتبها د. محمد يونس وقامت بترجمته ونشره مكتبة الأسرة في مصر عام ٢٠٠٧ . لقد تمكن الكاتب من خلال الثلاثة عشر فصلاً ، وهي فصول هذا الكتاب ، أن يدمج الأسلوب القصصي بالأسلوب العلمي من خلال عرضه لواقع الفقر في بنغلاديش في سبعينيات القرن الماضي والظروف الأجتماعية والسياسية التي كان يعيشها هذا البلد خلال تلك الفترة وما تلاها ، وذلك باسلوب قصصي مشوق ، استعرض خلاله حياته الشخصية وكذلك نشأة فكرة بنك (جرامين) أو(غرامين Grameen) **الذي خدم ملايين الفقراء و تم تطبيق أسلوبه في أكثر من خمسين بلداً في العالم . كذلك فمن خلال عرضه لتطور جرامين من فكرة الى مؤسسة مصرفية كبيرة فقد استعرض د.محمد يونس تجربة تنموية قائمة على أساس القروض بالغة الصغر التي تقدم الى الفقراء .**

١- قصة ما قبل جرامين

يبدأ الكتاب بشرح مجاعة عام ١٩٧٤ في بنغلاديش ، حيث كان يشغل منصب رئيس قسم الأقتصاد في جامعة (تشيتاجونج)التي تقع في مدينة (تشيتاجونج) الواقعة في الطرف الجنوبي الشرقي من بنغلاديش، تلك المدينة التجارية التي تضم أكبر ميناء في بنغلاديش ، والذي يحمل نفس اسم المدينة. وبالقرب من مدينة (تشيتاجونج) تقع قرية (جوبرا) الفقيرة . ويذكر د. محمد يونس مشاهداته حول حالات الموت التي كانت تحصل اثناء مجاعة عام ١٩٧٤ فيقول " ان هنالك طرق كثيرة للموت ، ولكن الموت جوعاً هو أكثرها ايلاماً للنفس ... ". لقد فزع محمد يونس من تناقضٍ شعر به ، وهو استاذ للتنمية الأقتصادية ، والمتعلق بمدى فائدة نظرياته التي كان يدرسها للطلبة في حين ينتشر الموت المجاني في الشوارع ، وتسائل " طالما أن هذه النظريات لا تعكس الواقع فكيف أستمر في ذكر قصص زائفة لطلابي؟ " . لقد قرر د. محمد يونس أن يكون أهالي جوبرا الفقراء هم اساتذته ليعلموه علم اقتصاد جديد.
كانت أول فكرة لأعانة الفلاحين هي (جمعية تعاونية زراعية ثلاثية الحصص) حيث قدم فيها د. محمد يونس الاموال بمشاركة مستأجري الأراضي والفلاحين مقابل ثلث المحصول في نهاية

---

* عضو هيئة تدريس : الجامعة المستنصرية / كلية الأدارة والأقتصاد

** تعني كلمة (Gram) باللغة البنغالية قرية أو ريف . أما كلمة (Grameen) فتعني ريفي أو قروي . وعليه يصبح بنك جرامين يعني البنك الريفي أو البنك القروي .

الموسم .. هذه التجربة أقنعت د. محمد يونس بتحويل اهتمامه الى الفقراء المعدمين ، في حين كانت تركز برامج التنمية الدولية في المناطق الريفية على المزارعين وملاك الأراضي . وفي بنغلاديش كان يعيش أكثر من نصف السكان حياة أسوأ من حياة المزارعين الهامشيين، وكانت المسألة المهمة للدكتور يونس هي في تحديد من هو الفقير لكي يتسنى توجيه جهود التنمية اليه . وبهذا الصدد فهو يقول (في عالم التنمية اذا خلط المرء بين الفقراء وغير الفقراء في برنامج واحد ، فان غير الفقراء عادة ما يُخرجون الفقراء منه . والأقل فقراً يُخرجون الأكثر فقراً ، ما لم يتم اتخاذ اجراءات للحماية منذ البداية . ففي مثل هذه الحالات يجني غير الفقراء فوائد كل ما يتم عمله بأسم الفقراء).

لقد أشار الكتاب كثيراً الى حياة قرية جوبرا والتي كثيراً ما زارها د. محمد يونس باعتبارها المختبر الذي كان يريد منه الوصول الى أفضل طريقة لمساعدة الفقراء على مساعدة انفسهم . لم يكن لدى فقراء قرية جوبرا أدنى مبلغ لأعانة أنفسهم حتى بأعمال حرفية بسيطة كصناعة الخيزران ... ويتذكر الكاتب واحدة من أهالي تشيتاجونج في العشرينات من العمر أسمها (صفية) وهي أم لثلاثة أطفال كانت تقترض في بداية اليوم (خمسة تاكا) أي ما يعادل ٢٢ سنتاً لصناعة كرسي خيزران وتعود في نهاية اليوم لتبيعه الى المقرض بخمسة تاكا وخمسين بويشاً ، أي أن ربحها من عملها طوال اليوم هو خمسون بويشاً (أي ما يعادل سنتين) ، وقد شكل هذا الواقع صدمة لمحمد يونس ... فطلب من أحد طلابه جمع بيانات من قرية جوبرا حول الناس من على شاكلة صفية ، وبعد أن تم جمع البيانات كان عدد المواطنين في القرية من أمثال صفية (٤٢) شخصاً وعند احتساب مجموع ما يحتاجونه للقيام بانشطة مدرة للدخل (كصناعة كراسي الخيزران مثلاً) فقد كان المبلغ لا يزيد عن ٢٧ دولاراً ... هذا المبلغ كان سبب بؤس هذه العوائل . هذه الحقيقة كانت في غاية الأهمية بالنسبة للدكتور يونس ... وقد عبر عن ذلك بالقول ((أن الأشخاص من أمثال صفية فقراء ليس لأنهم كسالى أو أغبياء فقد كانوا يعملون طوال اليوم ويقومون بأعمال بدنية شاقة . أن هؤلاء فقراء لأن المؤسسات المالية بالبلاد لم تكن تساعدهم على توسيع قاعدتهم الأقتصادية)) . وكان الحل بسيطاً للخروج من دائرة الفقر ... هذا الحل يتمثل بأقراض الفقراء المعدمين قروضاً صغيرة ميسرة .

لقد كانت المهمة الثانية للدكتور يونس هو معرفة سبب عدم اقراض المصارف للناس المعدمين . ومن خلال اتصاله بعدد من المسؤولين في المصارف توصل الى أن المصارف لا تستطيع أقراض هؤلاء لأسباب عدة : منها صغر المبلغ المقترض ، التدني الكبير لدخول هذه الفئة كونهم أناساً معدمين ، عدم وجود ضمان عيني ، اضافة الى أمية هؤلاء فهم لايستطيعون كتابة استمارات القرض ولا يعرفون كيفية التعامل مع المصارف ... الى غير ذلك من أسباب ، لذا كان يرى د. يونس أن الأغنياء فقط هم من يستطيع الأقتراض من المصارف . وكانت مسألة الضمان العيني مسألة محبطة للفقراء المعدمين حيث يشير الدكتور يونس الى أن الفقراء أكثر التزاماً بالتسديد طالما انهم يعرفون أن القرض هو فرصتهم الوحيدة للخروج من دائرة الفقر .

٢- مولد مشروع تجريبي

يشير د. محمد في كتابه الى أن بداية (جرامين) كانت عام ١٩٧٧ وذلك داخل قرية جوبرا بعد أن قام بدراسة كيفية ادارة الآخرين لعمليات القروض متعلماً من أخطائهم . فعند وضع هيكل برنامجه الأئتماني قرر د. محمد يونس أن يقوم بعكس ما تقوم به البنوك التقليدية . فمن أجل التغلب على العائق النفسي لدفع مبالغ كبيرة قرر وضع برنامج للدفع اليومي جاعلاً دفعات السداد صغيرة لدرجة لا يشعر بها المقترضون . وتسهيلاً للعمليات المحاسبية جعل مجمل السداد يتم خلال سنة

واحدة فقط . وعندما أدرك أهمية مجموعات الدعم لنجاح العملية برمتها طلب من كل متقدم الأنضمام الى مجموعة من الأشخاص ذوي العقلية المتشابهة ممن يعيشون في نفس الظروف الأقتصادية والأجتماعية وذلك للميزات الكثيرة التي كانت تحققها هذه المجموعات . وعندما تتكون المجموعة من خمسة أشخاص يقوم باعطاء قروض لعضوين منها فاذا قاما بالسداد بانتظام في الأسابيع الستة التالية يمكن للأثنين الآخرين طلب القرض ، ويكون رئيس المجموعة عادةً هو آخر المقترضين . وقد وضع د. محمد منهاج تدريب للمقترضين لمدة أسبوع واحد لتدريبهم على سياسة البنك ومن ثم اختبارهم في نهاية الأسبوع للتأكد من فهمهم لسياسة البنك بشكل عام . . كما شجعت سياسية البنك المقترضين على تكوين مدخرات يمكنهم اللجوء اليها في الأوقات العصيبة .

لم يمر مولد المشروع بسلام فمثلما كان هناك المتحمسون لفكرة (جرامين) كان هناك الكثير من المعارضين . وكثيراً ما عانى د. يونس من المعارضين لفكرته . وكانت أبرز حجج المعارضين أن فكرة البنك غير قابلة للتطبيق في خارج بنغلاديش، أو أن المقترضين الفقراء يسددون للمصرف خجلاً من د. محمد كونه أستاذاً جامعياً يحترمه الناس. كما أن الأئتمان بالغ الصغر نجح في تشيتاجونج كون أن د. محمد يونس من أهل المدينة .... الخ ذلك من حجج . ورغم الموقف السلبي الذي أتخذه المدراء العامون في البنوك الحكومية من (جرامين) عند تقييمهم له الا أن هنالك دعماً خارجياً كبيراً جاء الى (جرامين) ، وكانت مؤسسة فورد المؤسسة الوحيدة التي تدعم (جرامين).

لقد توسع مصرف (جرامين) مع زيادة عدد فروعه ، والتي وصلت عام ١٩٧٩ الى ٢٥ فرعاً . كما ان المصرف عند انشائه هو الذي يذهب الى الفقراء ولا ينتظر حضورهم اليه . أما سياسة المصرف فهي قبول الناس الأكثرحرماناً ، وأعتبر د. محمد يونس النساء المقيمات في أبعد الأماكن عن الموقع المقترح هنَ أكثر الناس حرماناً.

وقد قرر د. محمد أن يجعل العاملين في فروعه الجديدة من صفوة الناس . فمدير البنك ينبغي أن يكون بعمر أقل من ٢٨ سنة ، وأن يكون حاصلاً على شهادة الماجستير ويتم اختباره من قبل لجنة . وكان د. محمد يرى أن العمل في (جرامين) يعتبر عملاً شاقاً لذا فالعاملين لديه يقدرون قيمة الأمان ، الأحترام ، الثقة بالنفس ، والفرصة التي يوفرها هذا العمل . ان مدير أي فرع من فروع (جرامين) كان يسير يومياً أمياً لمقابلة القرويين وشرح اجراءات تكوين مجموعات الأئتمان . ولم يكن المشروع الجديد في الأماكن القروية البعيدة ينشأ بسهولة فقد كانت هنالك تحديات من رجال الدين وزعماء القبائل في حين كان للناس عموماً ، وللفقراء خصوصاً ، اندفاع غير طبيعي للأقتراض من (جرامين) للتخلص من فقرهم .

ورغم ضآلة الفائدة التي يتقاضاها بنك(جرامين) من الفقراء الا أن تبريره للفائدة كان تبريراً منطقياً فحسب د. محمد يونس أن تحريم الفائدة لا ينطبق على (جرامين)لأن المقترض من (جرامين)يعتبر أيضاً مالكاً للبنك . والهدف من التحريم الديني للفائدة هو حماية الفقراء من الربا ، ولكن حينما يمتلك الفقراء البنك الخاص بهم فان الفائدة تُدفع في الواقع للشركة التي يمتلكونها ، ومن ثم فهي تدفع لأنفسهم .

مولـــد بنـــك جرامين
كمؤسسة مالية مستقلة

لقد استفاد د. محمد يونس من علاقته ببعض المسؤولين الحكوميين ، كما استفاد من الأنقلاب العسكري للرئيس حسين محمد أرشاد عام ١٩٨٢ ، والذي رأى في (جرامين)

فرصة للكسب السياسي ، لجعل (جرامين) مؤسسة مالية مستقلة ليتخلص بذلك مما أسماه د. محمد ضغوطات الموظفين المدنيين الحكوميين وبيروقراطية البنك المركزي ، وليجعل (جرامين) مملوكاً للمقترضين بنسبة (١٠٠%) . الا أن جهوده في المحاولة الأولى أدت الى أن تكون ملكية الحكومة للبنك بنسبة (٦٠%) ، ثم تغير هيكل الملكية عام ١٩٨٥ ليصبح (٧٥%) للمقترضين والباقي للحكومة . ونتيجة لما أثاره هيكل الملكية في وضعه آنذاك من مشاكل كونه أصبح بنكاً خاصاً يديره مديراً عاماً معيناً من قبل الحكومة فقد بذل د.محمد يونس جهداً كبيراً لعرض موضوع تعيين المدير العام للبنك حتى جاءت موافقة البرلمان قبيل حل البرلمان وسقوط جكومة أرشاد. فاصبح تعيين المدير العام للبنك يتم بواسطة مجلس الأدارة وليس الحكومة . مما جعل بنك (جرامين) حراً بتعيين مديره العام .

تمكن بنك (جرامين) خلال عقد الثمانينات من اضافة ١٠٠ فرع جديد كل عام ، كما وسع نشاطه ليشمل قروض الأسكان .. ولم يكن من السهولة على النظام البيروقراطي للبنك المركزي أن يوافق على قروض الأسكان ، كون أن بنك (جرامين) يتعامل مع الفقراء ويقدم فقط قروضاً مولدة للدخل . الا أنه بعد أكثر من محاولة تمكن د.محمد يونس من أخذ موافقة البنك المركزي على أن يقدم البنك قروضاً للسكن معتبراً أنها (قروض لأنشاء مصانع) طالما أن الأنتاج وتوليد الدخل يتم في مساكن الفقراء ، فالمصنع سيؤدي دوراً اضافياً كمنزل . واعتباراً من منتصف الثمانينات ، ولمدة ١٢ سنة ، تمكن بنك (جرامين) من تقديم قروض لبناء ما يزيد عن ٤٨٢ ألف منزل ، وكانت كلفة المنزل الواحد لا تزيد عن ٣٠٠ دولا،حتى تم اختيار برنامج (جرامين) للأسكان عام ١٩٨٩ للحصول على جائزة أغاخان الدولية للهندسة المعمارية .

وكان بنك (جرامين) يقدم القروض دون أن يقدم تدريب ملزم لأعتقاد د. محمد يونس ان لدى البشر مهارة فطرية (مهارة البقاء) فالفقراء ، حسب د.يونس ، هم فقراء ليس لأنهم غير مدربين بل لأنهم لا يستطيعون الحفاظ على عوائد عملهم . ولكن لا يعني ذلك أن التدريب سيء ، ولكن ينبغي أن لا يفرض التدريب على الناس ، وينبغي أن يقدم فقط الى الذين يسعون اليه .

بنـــك (جرامين)
يتوسع الى الخارج

لقد قاد النجاح في بنغلاديش الى امكانية تطبيق فكرة بنك (جرامين) في الخارج ، وكانت المشاريع التجريبية في ماليزيا والفلبين في المقدمة منذ أواخر عقد الثمانينات من القرن الماضي . ففي الفلبين مثلاً ظهرت ثلاثة مشاريع على غرار(جرامين) ، الأول يسمى (آهون سايهروب) أي " النهوض من الفقر" ، والثاني هو مشروع دنجانون (أي الأمانة) ، والثالث هو (صندوق المعدمين) " لمركز التنمية الزراعية والريفية " (كارد) .وقد شجع نجاح البرنامج في ماليزيا والفلبين الى ظهور برامج جديدة في الهند ونيبال وفيتنام وفي الصين وأميركا اللاتينية وافريقيا . لقد دفع ذلك د. محمد يونس الى التفكير في انشاء فرع لصندوق ائتمان جرامين لتقديم المساعدة لبرامج المحاكاة . وقد حصل هذا الصندوق من المانحين على أكثر من ١١ مليون دولار استخدمت لمساعدة ٦٥ برنامج محاكاة في ٢٧ بلداً منذ عام ١٩٩٤ .

في عام ١٩٩٤ نشر د. محمد عرضاً بالحصول على منحة بمبلغ ١٠٠ مليون دولار لصندوق ائتمان جرامين ، لكن لم يحصل على عرض ملائم مما دفعه الى التفكير بفكرة تبرعات من مليون شخص في العالم كل واحد منهم يدفع ١٠٠ دولار لنفس الغرض . وقد أسماه د. محمد (صندوق الشعب) ..

لم يقتصر توسع (جرامين) على الدول النامية بل أمتد تطبيقه الى الولايات المتحدة الأميركية . لقد أعجبت فكرة القروض بالغة الصغر الرئيس الأميركي الأسبق (بيل

كلينتون) عندما كان حاكماً لولاية أركنسو عام ١٩٨٥ وذلك بشكل مشروع تجريبي تحت أسم (صندوق حُسن النية) باعتبار أن الصندوق لا يعتمد على ضمان عيني بل على حُسن نية المقترضين . وقد نما هذا الصندوق ليصل للمئات من منخفضي الدخل في أركنسو .. كما تكررت التجربة في الولايات المتحدة في (ساوث داكوتا) و أوكلاهوما . أما في شيكاغو فكان المشروع يسمى تجربة (صندوق الدائرة الكاملة) والذي بدأ عمله عام ١٩٨٨ . والمشكلة التي كانت تواجه د.محمد يونس في أميركا هو عدم تصديق الناس لما يطرحه فضلاً عن الحجج بأن الأميركان لا يستطيعون اقامة مشاريع خاصة لهم فهم يفضلون العمل في شركات .. كما أن أسلوب المشروع الحر المنفرد هو فكرة قديمة فالمشاريع تقام في الولايات المتحدة بأسلوب المؤسسات الكبيرة . فضلاً عن ذلك فأن قوانين الرعاية الأجتماعية تضع العقبات أمام متلقي هذه القروض حيث لابد لهم من ابلاغ دائرة الرعاية الأجتماعية عن أي ربح يحصلون عليه بواسطة هذه المشاريع ، وهذا يعني خصم مبلغ الربح من شيك الرعاية للشهر القادم . كما أن هنالك قوانين أخرى تمنع متلقي الرعاية الأجتماعية من الحصول على أي قرض من مصدر مؤسسي . وبعد فترة ظهرت برامج في الولايات المتحدة أخذت فكرة الأئتمان بالغ الصغر مع أجراء بعض التعديلات عليها .

بعد ذلك امتد نجاح الأئتمان بالغ الصغر الى أوربا الغربية ، خاصة التي تعاني من بطالة عالية .وكذلك امتد الى بلدان أوربا الشرقية بعد تحررها من الحكم الشيوعي .

الموقف من النظام الرأسمالي

أن للدكتور محمد يونس رؤية لما يجب أن يكون عليه المجتمع الرأسمالي ، شرحها في كتابه هذا ، ونستطيع تلخيصها بالآتي : ان الرأسمالية هي نظام يعمل على تحقيق أقصى قدر من الربح ، والذي يحقق الأستخدام الأمثل للموارد . وقد سلمنا بأن الشخص الرأسمالي يعمل على تحقيق أقصى ربح وبغض النظر عن الأهداف الاجتماعية . كما سلمنا بأن منظمي المشروعات هم صنف خاص ونادر من الناس ينبغي على المجتمع أن يعبر لهم عن الأمتنان باعطائهم كل الأمتيازات بما في ذلك التقدير الأجتماعي والأعفاءات الضريبية والحماية ...الخ . ولكن د. محمد يرى بأن منظم المشروع لا يعد شخصاً موهوباً على نحو خاص ، فالبشر جميعهم يمكن أن يكونوا منظمي مشروعات ، ولو أننا جميعاً بدأنا ننظر الى كل فرد ، حتى للشخص الحافي القدمين والذي يتسول في الشارع على أنه يمكن أن يكون منظم مشروع لأستطعنا أن نبني نظاماً اقتصادياً يتيح لكل رجل وأمرأة استكشاف امكاناته الأقتصادية . من جهة أخرى ففي بعض البلدان مثل أميركا لا يرغب المساهمون أن يستخدم مجلس الأدارة في مساعدة المجتمع . وبالتالي تم تجاهل البعد الأجتماعي للمشروع . لذا يؤكد د. محمد يونس على ضرورة قيام مبدأ عام وهو أن يقوم منظم المشروع بتعظيم حزمة من الربح والمردودات الأجتماعية للمشروع ، وعليه فان الفلسفة التي بني عليها (جرامين) تقوم على الأقلال من التوجيه والألتزام بالسوق الحر .

كما يلتزم (جرامين) بالأهداف الأجتماعية مثل ألأقلال من الفقر وتوفير الرعاية الصحية والتعليمية ورعاية كبار السن وتمكين النساء . كما يريد (جرامين) اقامة مشاريع يدفعها الوعي الأجتماعي للتنافس مع المشاريع القائمة على الجشع . ويؤمن كذلك بالتدخل الأجتماعي دون مشاركة الحكومة في ادارة أنشطة الأعمال أو في تقديم الخدمات ، حيث أن (جرامين) يتعارض مع القطاعين العام والخاص ويدعو الى أقامة قطاع جديد تماماً سماه د. محمد (القطاع الخاص الذي يدفعه الوعي الأجتماعي) .

من جهة أخرى فان د. محمد يونس من خلال مؤلفه هذا سعى الى رفض اعتبار مؤشر دخل أو انفاق الفرد كمقياس للتنمية ، فهو يعتبر ان التنمية تغيير نوعية حياة الخمسين في المائة الأدنى مستوى من السكان . أو أنها التركيز على نوعية حياة الخمسة والعشرين في المائة الأدنى مستوى من السكان .

لقد تطورت أنشطة(جرامين) الى مشاريع مهمة كالمشاريع النسيجية (مشروع جرامين أودوج " أي مبادرات جرامين " لأنتاج ترابيع جرامين) ، ومشاريع الهاتف النقال (جرامين فون و جرامين تيليكوم) .

كان د. محمد يونس يؤكد في كتابه على ان الأئتمان بالغ الصغر ليس علاجاً مُعجزاً يمكن أن يقضي على الفقر بضربة قاضية واحدة . ولكنه يمكن أن يقضي على فقر الكثيرين ، ويخفف حدته لدى البعض الآخر . وبالجمع بينه وبين البرامج الأبتكارية الأخرى التي تطلق العنان لطاقات الناس ، فان الأئتمان بالغ الصغر يعتبر أداةً رئيسية في بحثنا عن عالم خالٍ من الفقر .
وفي نهاية كتابه يتسائل د.محمد يونس : هل نستطيع خلق عالم خالٍ من الفقر ؟ عالم بدون مواطنين من الدرجة الثالثة أو الدرجة الرابعة ، عالم خالٍ من الطبقة الدنيا من الجوعى ، والأميين وحفاة الأقدام؟.
ويجيب د. يونس وبثقته المعهودة : نعم نستطيع ، بنفس الطريقة التي نستطيع بها اقامة دول ذات سيادة أو أنظمة سياسية ديمقراطية أو اقتصادات سوق حرة . وقد لا يكون عالم خالٍ من الفقر عالماً كاملاً ، ولكنه سيكون أقرب ما يكون الى المثالية . لقد خلقنا عالماً خالياً من العبودية ، وعالماً خالياً من مرض الجدري ، وعالماً خالياً من التمييز العنصري . وسيكون خلق عالم خالٍ من الفقر أعظم من كل هذه المنجزات ومدعماً لها في الوقت نفسه. انه سيكون عالماً نفخر جميعاً بالعيش فيه .